قــراءة تحليليّة نقــديّة فــي رواية الطّليــاني للكاتب الروائـــي شكري المبخوت

سعاد معاوي الشيباني ـ كلية اللُّغات ـ جامعة الجفارة .

أولاً- استعراض الرواية:

تُعدَّ هذه الرواية أوّل تجربة روائية للكاتب شكري المبخوت ، خرجت إلى النور بتأثير ثورات الربيع العربي ، وفي تراثنا الموسوعـــي أعمال كثيرة، تحدثت الدارســـون عن التأثير والتأثر في الأدب ، وهذه قضية ليست بدعاً في الآداب، فما من أدب أمة إلاّ أخذ وأعطى ، وأدبنا العربيّ أفاد من آداب الأمم كما أفادت منه آداب كثيرة ، وحافظ أدبنا على سماته وخصائصه العربيّة ، ولم يفقد شخصيته من المجتمع الذي نشأ فيه، وربما تقبّـــل الأدب العربيّ مؤثرات أجنبية ، لكنها لم تنقص من أصالته.

سجلت هذه الرواية العديد من الأحداث السياسية والاجتماعية التي وقعت في تونس بعد سنتين من ثـــورة الخامس عشر من يناير (2011م)، واستعادت مرحلة قريبة من تاريخ تونس شبيهة بتقلبات وصراعات في أثناء فترة الانتقال من عهد الرئيس بورقيبة إلى عهد ابن عليّ إثر انقلاب (1987م).

وأهـــم الملامح التي تميّز هذه الرواية، استحضار الصراع الحضارتين الإسلاميّة والغربيّة ، وبروز أبعاد شتى منها مراحل الصراع الثقافيّ والسياسي والاقتصادي من خلال قصة حب بين الطموح وتحقيق الذات. كما سجلت الرواية فترة ثمانينيات القرن الماضي ، فقد تمكّن الروائي من تجسيد اضطرابات بطل الرواية عن اضطرابات تونس الاجتماعيّة والثقافية والسياسية ، وحال الشعوب العربيّة في زمننا الحالي يتطلب هذه النوعيّة من القراءات ، وكذلك الأدب يتطلب هذا التطرق المتأخّـــر لمثل هذه الأعمال ، فالشعوب العربيّة تتغنى بتغيير الأنظمة ، وتسخر آدابها لمواكبـــة أحوال الأمة.

فهذه الرواية صورة من صور المجتمع التونسي ، أو نموذج من واقع الحياة ، حيث تتصارع قوى الخير مع الشر وتلتحم العقيدة بجيشها الفكري والروحي في معركة مع حضارات الاستعمار وأخـــلاق المستعمرين ، فالقضية الجوهرية في هذه الرواية تتمثل في ذلك الصراع بين القيم والمثل الإسلاميّة، والقيم الغربية الوافـــدة.

كتبت الرواية في الوقت الذي كانت فيه الساحة الإسلاميّة تعـــج بالمتناقضات من تيارات فكريّة وثقافات وافدة ، وحملة تغريب خطيرة ، ركّـــز فيها الروائي على طلبة الجامعة ؛ لأنهم أكثر شريحة في المجتمع تأثراً بهذه الثورة سارداً نشاطهم السياسي

وتنظيماتهم وأفكارهم التي كانت سائدة في تلك الفترة ، وما ينجم عنها من مواجهات مع المؤسسات الأمنية ، لينتقل إلى رصد الحياة في المجتمع التونسي ، كما لا ننسى أن تونس الشرارة الأولى لبداية ثورات الربيع العربيّ.

ثانيا ـ نبذة موجـــــــــزة عن الروائي شكري المبخوت:

الدكتور شكري المبخوت كاتب تونسيّ ، وأستاذ جامعيّ ، ولد عام (1962م)، مقيم بتونس، وعميد سابق لكليّة الآداب والفنون والإنسانيات بجامعة منوبة شمال، يشغل حالياً منصب رئيس جامعة ، والحاصل على دكتوراه الدولة في الآداب في كليّة الآداب ، وعضو في العديد من هيئات التحرير بمجلات محكّمة منها مجلة ايلا ، التي يصدرها معهد الآداب العربيَّة بتونس ، ومجلة aomaho arqblba

التي يصدرها مركز الدّراسات العربيَّة التابع لجامعة بوخاست ، رومانيا.

وهو أكاديمـــيّ وناقد معروف ، نشر عدة كتب نقديّة، منها:

ـ جماليّة الألفة : النص ومتقلبه في التَّراث ، ونظرية الأعمال اللُّغوية.

ـ سيرة الغائب وسيرة الآتي ، والاستدلال البلاغيّ، والمعنى المحال.

ـ توجيه النفي ، ورواية الطّلياني.

حظيت رواية الطلياني باهتمام كبير منذ صدورها عن دار التنوير، وعدد فصولها اثنا عشر فصلاً، وصفحاتها ثلاثمائة وأربع وأربعون صفحة.

تحصلت رواية الطلياني على عدة جوائز منها : جائزة الإبداع لمعرض تونس الدولي للكتاب في(2015م)، وجائزة الكومار الذهبي للرواية التونسيّة لعام(2015م) وجائزة البوكر العربيَّة العالمية للرواية العربيّة في دورتها الثامنة للعام(2015م)، وترجمت إلى الإنجليزية بتمويل من هيئة أبو ظبي للسياحة والثقافة برعاية مؤسسة جائزة البوكر في لندن.

ثالثاً ـ مفهوم الرواية في الأدب العربيّ :

الرواية جنس أدبيّ نثري طويل، يعتمد السرد بما يحويه من وصف ، وحوار، وصراع بين الشخصيات، وما يتطـــوّر عليه الحكي من تأزم تغذيه الأحداث ليصل للعقدة ثم الانفراج ، وتجتمع فيه مكونات متداخلة كالشخصيات والأحداث ، والرواية طغت على باقي الأجناس الأدبيَّة ، أطلق عليها ديوان العرب، أو ديواننا الجديد(1).

فالرواية مظهر فنيّ بلاغي لانفعال الكاتب بما هو موجود قبل القص ، أي : بما هو كائن واقعاً لا خيالاً، وما ذلك إلا لأن الروائي إنسان اجتماعي ، مما يجعله موضوعاً لحدوث فعل الآخرين والأشياء فيه... ، وهكذا يتبين أن الكاتب والمتلقي يلعب كُلَّ منهما لعبة الفعل والانفعال من خلال العمل الروائي الذي من سماته التكوينية سعة مساحته

الزمانيّة والمكانية، ثم كثرة مكوناته ، وبالمحصلة كثرة تمظهرات الحدوث الإنساني، والمعرفي، والجمالي فيه ومن خلاله(2).

إنّ الرواية العربيَّة باعتبارها نوعاً سردَّياً تشكلت وتطورت مجمل إنجازاتها الفنيَّة والجمالية في نطاق التحولات الكبرى التي عرفها المجتمع العربيّ عَقب احتكاكه بالغرب وبالثقافة الغربيّة ، وبموجب هذه الحقائق للعمل الروائي، موقفه من الحياة بناء نموذجه ، عرضه للواقع، ارتكازه على الشكل المتجذر في أصوله ، وما إلى ذلك سنقف مع الرواية لمعرفة مزاياها الفنيّة، وسيتم من خلال المباحث التالية.

المبحث الأوّل- مضامين الرواية:

أ ـ الشـــخوص: تمتلك الشخصية في العمل الروائي موقفاً خاصاً متميّزاً بين عناصر هذا الفن ومكوناته ، إذ يُعدَّ بناء الشخصية الروائيّة واحداً من أصعب مهمات الروائي وأكثرها تعقيداً ودقة ، مادام مهتماً بالإنسان ومشكلاته ، فلا يمكن للأديب أن يصوغ تجاربه ويحدد موقفه من الحياة ، ويعرض آراءه وأفكاره بشكل مجرد ، بل لابّد له من أن يعرضها ممثلة في أفراد من ضمن مجتمع معين، فالأفكار إنّما تتمثل في الناس وتحيا بهم، وبسبب من هذه الأهمية، وربما للصعوبة التي تواجه الروائي في بناء الشخصيّات الروائية.

ومع هذا فإنّ الروائي مطالب بعنصر الإقناع في رسم شخصيات روايته ، لكي تبدو كياناً إنسانياً حياً نابضاً، أيّ : مهمة الروائي تتحدد في " رسم صورة متكاملة وشاملة للشخصيّة الإنسانيّة، وكشف علاقاتها المعقدة بالعالم الخارجي، والتغلغل إلى ثنايا عالمها الداخلي، والتقاط ردود الشخصيّة عبر الحدث القصصي، وتطويرها بما يخلق منها شخصية من لحم ودم"(3)، حظيت الشخصيّة مكاناً مهماً في الرواية ، فهي أحد مكوناتها الأساسية، وهي من ينســـج الأحداث ويحركها " لا رواية من غير شخصية تقدم الأحداث ، وتنظم الأفعال، وتعطي القصة بعدها الحكائي... وتُعدَّ الشخصية العنصر التي تتقاطع عنده كافة العناصر الأخرى بما فيها الأحداث الزمانية والمكانية الضرورية لنمو الخطاب الروائي واطراده"(4) .

وتأسيساً على ما تقدم ، لدى تحليل الشخصيات في رواية الطلياني ، والاسم الذي يحدد الشخصيّة ويجعلها معروفة، ويختزل صفاتها، ولهذا كان لابّد للشخصية من أن تحمل اسماً يميّزها، إذا كانت الشخصية قد حظيت بمكانة مرموقة في الرواية ، فإن شخصية البطل مشكّلة في ذاكرة الشعوب العربيَّة عبدالناصر يرمز إلى زعيم الفكر القومي ، كما رسم الروائي صورة البطل متأثراً ببيئة مختلفة فيها عدة أصول ، فأطلق

عليه الطّلياني ؛ أيّ : يشبه الأوربيّ في وسامته " فحتى وسامة الفتى التي جمعت جمال الأصول الأندلسيّة لأمّه وجدّته ومخايل الوسامة التركيّة لأبيه وجدّه"(5).

تجد الملامح الغربية تمتزج في شخصية البطل بين الأصول الأندلسيّة والتركية، فعبد الناصر طالب جامعي تأثر بالثقافة الغربية ، ويظهر ذلك في سلوكه الذي لا نرى فيه احتراماً ومحافظة على العادات والتقاليد العربيَّة والدينيّة ، ومع سلوكه المنحرف لم يمنعه من المساهمة في رفع الظلم والمشاركة في الثورة لإزالة الفروق الطبقية ، فهو يتميز بوعي عقلي فلسفي يبدو جلياً في تصرفاته وأحكامه ، كما يبدو في رفضه الكامل لكل المسلمات القديمة ، وينفر من القيم الدينية والأخلاقيّة، لكنه مع ذلك ينخرط في أثناء دراسته الجامعيّة في أحد الأحزاب اليسارية ، فيخالط أبناء الفلاحين والطبقات الكادحة ، ويترأس إحدى قوائم الحزب الشيوعي.

أثر شخصية البطل وملامحه الممزوجة بين الأندلسيّة والتركية ، فوالده من عائلة ذات أصول تركية، وكان من المتفتحين الذين يخالطون الفرنسيين فانعكس ذلك على شكله الطلياني وهيئته، وعلى انفتاحه وتمرده وتنكره لكل شيء وتحرره من القيود والتقاليد وعادات بلده وطقوس دينه ، فتجد ذلك يظهر جلياً عند مراسم دفن والده الذي أبي فيها أن ينصاع لمراسم الدفن ورفض أن يؤدّي الصلاة على روح والده ، لم تتجسد فيه القيم الإسلاميّة، وهذا ناتج عن تأثره بالغرب وأصدقاء السوء والانحراف وبُعد الوازع الديني.

عبد الناصر، تظهر فيه رمزية اليساري التونسي ، فمعركته مع الغربيّ بما يمثله من قيم تدميرية في قيمه ومبادئه، وذلك ما فعله مع الإمام علالة المعتدي عليه بكل ما يمثله في الذاكرة الشعبيّة من معنى عقائدي ديني اجتماعي ، كانت نتيجتها إدانة اجتماعيّـــة لعبد الناصر الذي لم يسر في درب والده الوقور ولم يعترف بجميله، بل قابله بالجحود، فكان يوم موت والده مخمور وكان الأجدر به أن يصلي ويدعو له بالمغفرة والرحمة ، وينظر للمصلين في المكان الذي تتوحد فيه الروح الإسلاميّة، إذ تجد أثر المعاناة والضغوط النفسيّة من خلال ما يجري في مخيلته من خواطر وأحاديث ذهنيّة على نحو قوله : " تعرف كما يعرفون أنني لا أصلي ولا أصوم"(6).

إنّ العلاقة بين الأب وابنه علاقة تميل إلى الأخذ بالنّمط الغربي في التربيّة ، والمثل يقول: النار تخلف الرماد، فأين الابن من الأب ؟ " أناقته وجبّته السكرودة التونسيّة وشاشيته الأسطنبولي ، أو بدلته الإفرنجيّة...وعبد الناصر وسروال الدجينز وسترة النّقري والشعر الأشعث واللحية المعفّاة "(7). يقدم الروائي منذ البداية أن عبد الناصر غير جدير بالانتماء الأسري ، لما كان فيه من ضلال وضياع على عكس ما استلهم للقيم

العظيمة في زمن ضاعت منه القيم وساد فيه الظلم ، فقد وفق الروائي في توظيف شخصية صلاح الدين الأخ الأكبر؛ لأن شخصية صلاح الدين لها تاريخها الإسلاميّ ، وهو من الأبطال الذين أسهموا في تثبيت دعائم الدولة الإسلاميّة، استحضر هذه الشخصيّة بوصفها رمزاً للماضي المشرق ، فتجد الروائي اختار هذا الاسم لهذه الشخصية في رمزية العقل والعلم، وذلك بحكم رتبته الجامعيّة ومكانته الدولية، فهو من كبار خبراء الاقتصاد، وهذا الأخ الذي كان دائماً إلى جانب أخيه يساعده ربما كان نمط عيشه لا يناسب مجتمعاً محافظاً مثل المجتمع التونسي الذي لا يعترف بالحرية الشخصية ، ولا يحترم اختيارات الفرد ، فلو لم يعش في سويسرا لكان مثل أخيه عبد الناصر أو أسوأ حالاً.

نرى عبد الناصر متمرداً على طقوس الموت والدفن ، بدأ منبوذاً اجتماعياً لا بوصفه مناضلاً يرفض الانصياع لنواميس الطبقة الارستقراطية الحاج محمود والطبقة البرجوازية أخاه صلاح الدين، يظهر انفلات عبد الناصر في ضربه للإمام الذي كان يؤم المصلين في صلاة الجنازة دون أن يفهم أحد السبب الذي دفعه إلى ذلك، فهي حادثة لا تنسى ، وزيادة على ذلك صراخه وشتمه في هذا المقام الذي ينبغي فيه الخشوع وتذكر الآخـــرة ودون مراعاة الآخرين ، ربما كان متأثراً بثقافته التي استمدها من كتب أشارت إليها أخته الكبرى جويدة ، "كُتب تدعو إلى الكفر والفساد والعياذ بالله"(8) ، وقوله خاله توفيق : " يرجع الأمر إلى فساد متأصل في أخلاق الطلياني تدل عليه ملابسه وهيئته وشربه الخمر وعيشته البوهيمية..."(9).

هنا ربط الروائي أفعال عبد الناصر بتمرده وفساده الذي نرى أنه متأصل بفعل اختلاطه بـالناس من غير بلده ، كما تجده ناتج عن عدم رعاية العائلة والاهتمام بأبنائها، وتفضيل الابن الأكبر على بقية الأبناء في المعاملة ، فهذا له تأثير على نفسية الشخص ، وبذلك ينعكس إلى انحراف وضلال.

نلمس أثـــر الأحداث عند زينة الطالبة اليسارية ، ذات شخصية قوية صريحة لفتت إليها كل الأنظار بذكائها وجودة نقاشها ونقدها لفكر وسلوك كل من الإسلاميين واليساريين ، فهي من الشمال الغربي التونسي ، إذ عمد الروائي إلى أن يحصر زينة في سلوكها ومنطقها قيم الحضارة الغربية ، ومن ثم فقد دلت شخصيتها على تأثرها بمظاهر الغرب ، كما تجد أن أصولها بربرية، اسمها الحقيقي البربري أنروز(10). عاشت في تونس العاصمة متحررة من كل شيء، ولكن ما كان لتحررها هذا أن يستمر، فرضت قناعتها المنحرفة على الآخرين ، وطبيعة علاقتها بوالديها ، ويبدو هذا ناتج عن انحلالها وبُعدها عن الدين ، وهذا لا يخرج عن كونها تأثرت بالتحضر الغربي ، فهي

فتاة تقليدية لا تعرف من أمر دينها سوى كونه مجرد طقوس وعبادات ليس إلاّ، مع أنها طالبة فلســـفة وكان بإمكانها أن تتحدث بلغة المنطق ، ولكننا نراها شخصية منحرفة لم تكن واعية بما فيه الكفاية ، واسمها البربري ربما يوحي به الروائي إلى رسالة ما ، وكأنه يشير إلى أن الفساد تغلغل إلى حد كبير في كل المستويات والأرجاء، وتجدها متأثرة إلى حد كبير بالفرنسيين تذكر هذا في الرواية أنها تقرأ " أكثر الكتب وروايات وأشعار وبعض المؤلفات لديدرو..."(11).

إن لقاءها مع عبد الناصر كان من باب الصدفة والفضول في الاكتشاف في أثناء انخراطهما في تجربة النضال الطلابيّ داخل الجامعة ، والصدفة جعلت العلاقة اليسارية بحكم انتماء كلاهما إلى اليساري التونسي الطلابي تتحول إلى علاقة عاطفية، وتأخذ الحيز الكبير في الرواية. إن اللقاء الذي يمكن أن يكون عملاً نضالياً ومواجهة الأمن أو بوليس النظام كما يقولون، تجده في شخصية زينة الطالبة الانتهازية، وكذلك صديقتها نجلاء كانت أسوأ حالاً، فهي ضحية مجتمع متحرر لا ضوابط تحكمه ولا عادات، فكلتاها تستطع أن تحافظ على مبادئها وكرامتها.

كما نلاحظ أن الروائي ينفي مبدأ النضال عن شخصية زينة ؛ لأنها لم تكن تناضل من أجل المبادئ والقيم ، بل تجدها من أجل تحقيق طموحها المادي على حساب كل المبادئ والقيم التي يفترض أن تدافع عنها كمناضلة ، فتنتهي إلى العجز، وهذا ناتج عن الانحلال العائلي والتفكك الأسري تأثرت بسلوكيات غريبة ، ولعل من أبرز تلك الصفات افتقادها الأصالة ، وسعيها وراء الحياة المادية البراقة، كانت سلوكياتها تفصح عن ذلك الأثر على الرغم من تفوقها في كل سنوات الدراسية الماضية كانت ضحية ثقافة منفتحة متحررة.

إن علاقة عبد الناصر بـ زينة هي لحظات أغتنمها لتعرف على عالم آخر، وبما كان يمتلكه من ملامح الوسامة ، أيحق له أن يستبقيها بذريعة الحب؟ أيسمي شعوره نحوها حباً، أم مجرد رغبة ورهبة ؟ أيصح له أن يعيش مع امرأة لا تتقيد بأي قيم إسلاميّة ؟ ولهذا لم تكن علاقته بها أكثر من معرفته بـ " بوك علي "، الرجل المجهول الانتماء البيئي ، فهو محل السخرية والتهكم ؛ لقذارته واتساخه، وتمر بهما المرحلة ما بعد الجامعة يبدوان كنموذجين للشباب التونسي، وهي نماذج محبطة ، يعمل عبد الناصر في صحيفة حكومية، ويكتب فيما بعد مقالات تبارك انقلاب زين العابدين وينغمس في الرذائل، ومصير زينة كان أسوأ حالاً، فهي في مهب الريح هاجرت إلى فرنسا وطلبت الطلاق من عبد الناصر، لعلها تحقق طموحها ، ولكنّها تنتهي إلى مجرد فتاة مفتونة بمظاهر الحياة الغريبة ، حدث معها ما لم تكن تحسب له حساباً، وسفرها لا يدّر عليها

نجاحاً علمياً ولا اجتماعياً، تزوجت من باحث فرنسي يكبرها سناً من غير صداق ، ولم يشهر إسلامه، ولا تربط بينه وبينها أي تفاهم ولا احترام ، رأى في زينة صورتي الشرق الرومنسية والغرب بعقلانيته وحداثته(12).

وتسير الرواية وأحداثها رصداً لحياة عبد الناصر في النضال السياسي ومغامراته العاطفية خلفية لتأمل تاريخ تونس الحديث بكل تعقيداته ، إذ يتعرض إلى اضطرابات عاطفية مع جارته للآجنينة وهي - أيضاً - منحرفة، ويدخل معها في تجربة مثيرة في خياله ؛ وهذه المرأة حاولت إغواءه، كما حاولت إغواء أخاه الأكبر من قبل ، فهي امرأة مستهترة بالقيم والمبادئ تحاول الوصول إلى لعوب تتظاهر بالعفة لخداع عائلة عبد الناصر ؛ ولكنها على النقيض من ذلك، ويتأثر بما جرى له معها ، وتكون هذه الحادثة - أيضاً - سبباً في ضياعه وانفلاته وطيشه الشبابي.

وهنا يبدأ الصراع النفسي الذي يعيشه كلٌّ من عبد الناصر وزينة ، بسبب تأثرهما بالثقافات الغربية، وعدم احترامهما إلى أصالتهما ، فما عرفوا من الدين غير رموز ونعوت أُمليت من قبل أهلهم ، تجد ذلك في انحرافهما وطريقتهما في الزواج ، كما تجد في هذين الشخصيتين صراعاً نفسياً يعيش كل من عبد الناصر وزينة مع أولئك الذين يتبنون وجهة النظر الغربية في حياتهم ، وينتهي صراعهما مع هذه الشخصيات غير المؤمنة.

المبحث الثاني- أساليب تقديم الشخصية:

من أساليب تقديم الشخصية اندراجها انسيابياً، فكلما كان وقعه أفضل وأحسن لدى المتلقي ، كانت لحظة دخـــول الشخصية في العمل الروائي لحظـــة ورودها في ذهن القارئ، لكي يحدد مواقفه منها تعاطفاً أو نفوراً ومع استمرار الحدث.

ويُعدَّ مصير الشخصية من صيغ تقديم الشخصية في العمل الروائي ، إذ تبقى الشخصية تشد انتباه المتلقي منذ لحظة ورودها، وفي ضوء المصير يتحدد المجال الانفعالي له - أي : المتلقي - تجاه الشخصية ، وكلما كان مصير الشخصية مؤثراً ازداد رسوخ الشخصية وتأكد حضورها حتى بعد انتهاء القراءة(13).

إن معظم الشخصيات في الرواية تقريباً لاقت مصائر مأساوية منها ، الحدث الذي وقع في المقبرة للإمام عندما ضربه عبد الناصر حتى نزف رأسه ، يسترجع عبد الناصر ذكرى حادثة قديمة مرت عليها سنوات ، وطلاقه من زينة كانت نهاية مأساوية التي ساقت عبد الناصر إلى نسوة كثيرات ، كذلك موت الحاج الشادلي عندما أخبره صلاح الدين بأمر ابنته للآجنينة وزواج للآجنينة من الدرويش علالة مع ما تمتلكه من جمال ومال ودلال ، وكذلك مصير نجلاء التي لم توفـــق في زواجها وأصبحت في

علاقات غير شرعية مع عبد الناصر وغيره ، وهذه العلاقة سرعان ما كشفتها زينة قبل أن تصل إلى فشل والنسيان ، والمصير المأساوي - أيضاً - سجن الأستاذ فتحي، أما المصير السعيد ، هو ترك عبد الناصر النضال السياسي والنقابي والتحاقه بجريدة ناطقة باسم الحزب الحاكم، كذلك نجاح زينة، فقد نالت شهادة الأستاذية في الفلسفة ، وعُينت بتلك الشهادة مدّرسة في إحدى المعاهد.

وبدهي أن تعكس الرواية في أعماقها صورة لاحتكاك الشرق بالغرب ، وهذا الاحتكاك جعل الروايات العربيّة تأخذ صوراً متعددة من الصراع لمحاولة إثبات الذات العربيّة وكشف طبيعة العلاقة بين تأثير الغرب الضياع والانحراف والانحلال، هذا ما يعاني منه مجتمعنا العربي اليوم ، وعموماً لا نكاد نجد رواية تخلو من التأثير الفرنسي أو الأمريكي أوربيّ.

في هذه الرواية نلاحظ منظومة متنوعة من الأسماء ، الذي كان الروائي يتعمد اختيارها لتعكس دلالات فنيّة تسهم في توضيح صور ومعالم شخصياته أو وصفها الاجتماعي أو وظيفتها ، وقد اختار للمرأة اسماً يحمل دلالة على الإيمان، وربما يكون أقل تقدير دلالة على الصفات الإيجابية ذات علاقة بالرسالة الإيمانيّة مثل: زينب، حليمة ، سكينة، آسيا، كما تجده يختار للشخصيات الملتزمة أسماء لا تمت إلى التراث الإسلاميّ بصلة مثل : للآجنينة ، يامينة، أنروز، أنجليكا ، كارلا، والأسماء لها دلالة وتؤثر في شخصية المسمّى ، وكذلك التشبيه له تأثير فكري.

المبحث الثالث – الأحـــــــداث:

الحدث : هو مجموعة وقائع منتظمة أو متناثرة في الزمان تكتسب تلك الوقائع تمايزها وخصوصياتها من حركتها في الزمان على نحو معين، ويبني الحدث الروائي في تسلسله في الزمان بأنساق بنائية عدة، منها ما يخص هذه الرواية ، النسق التتابع، ومزية هذا النسق أن الأحداث فيه تتوالى بعضها تلو بعض مع وجود رابط بينها نحو النهاية المرسومة ، ويعدُّ هذا النسق أحد وأهم الطرق القائمة على الربط بين حكايات مختلفة(14) .

تنهض الرواية من خلال اثنا عشر فصلاً، وقد أعطى السَّارد لكل فصل من فصول الرواية رقماً يكاد يكون التتابع مهيمناً على جميع فصول الرواية ، إذ نلتقي بالحدث الغريب الذي قام به الطلياني ، ومن أهم الأسباب اللغز الذي حدث في المقبرة يتولد في نفس البطل صراع عنيف ، فيأخذ بالحدث مع نفسه مسترجعاً أحداثاً ذكرى حادثة قديمة مرت به منذ سنوات.

وتتوالى أحداث الرواية بلقائه بـ زينة وعلاقته بها من باب الصدفة والفضول في الاكتشاف أثناء انخراطهما في تجربة النضال الطلابي داخل الجامعة ، والصدفة جعلت العلاقة اليسارية بحكم الانتماء إلى اليساري التونسي الطلابي تتحوّل إلى علاقة عاطفية، وتأخذ الحيز الكبير في الرواية نقطة التحوّل الأولى في مسيرة الطلياني، تكون بتصفية زينة بسبب انتقادها اللاذع للحزب الشيوعي وتأثر الكثير من الطلاب بها، لكنه يعجب بها وبشخصيتها القوية، وفكرها النقدي فيرفض قتلها ، ويتخذ مسؤولية حمايتها، ثم يتزوج بها، وتستمر الأحداث بالتوالي في اللقاء الذي يمكن أن يكون عملاً نضالياً ومواجهة بوليس النظام ، تجد في شخصية زينة طالبة الفلسفة، أصبحت مثالاً في إدارة النقاش في إقناع الطلبة بآرائها، وهي ترى أن الثقافة تتمثل في طرح الأسئلة ونقد كل الإسلاميين واليساريين ، ومواجهة البوليس وتهديد بالتصفية.

يمكن تلمس صورة التجربة الأدبيَّة في الرواية من خلال هذا البناء، أنها تجربة تكاد تكون في معظمها محاكاة لحدث واقعي عاشه الروائي التونسي مباشرةً، فقد أجاد الروائي في تصوره بصورة واضحة من خلال نسق التتابع؛ لأن من الخصائص الأساسية لهذا البناء أنه في ترتيبه الزمني يكاد يكون نسخاً للوقائع اليومية في تسلسل حدوثها.

المبحث الرابع- العقد ونهاياتها:

نهايات الرواية لا تقل أهميّة عن البدايات ؛ لأنها ليست مجرد ختام لأحداث الروايـــة ، بل هي لحظة التنوير النهائي، أنها اللمسة الأخيرة التي تمنح شخصيات الرواية كمالها ونهايتها.

إنّ الروائي وضع لها الحلول المناسبة، فهو لم يترك للمتلقي أن يقرر بنفسه شكل النهاية الذي هو من مزايا الرواية، إذ أن نهاية الرواية مغلقة لا مجال للمتلقي من أن يضيف إليها شيئاً، أو أن يتصور شيئاً آخر، ولعل مرد ذلك إلى الغايات الذي كان الروائي يسعى إلى تحقيقها، وإلى الهدف الفكري الذي كان يسعى إلى بعثه في نفوس الآخرين.

أما العقد، فتجد العقد في الفصول الأولى من الرواية كثيرة منها : اللغز الذي حدث في المقبرة عندما ضرب الطلياني الإمام علالة وذهول المعزين، وما تجده واضحاً في نهاية أحوال زينة وطلاقها من عبد الناصر وتركه الصحيفة وترددده على الحانات وزواج للآجنينة من الدرويش.

المبحث الخامس- لغة الروايـــــــــــة:

تُعدَّ اللغة أداة كل خطاب أدبيّ ، وأي تغيير بصيغتها يسهم في تطورها لدى المُرسل والمستقبل معاً للخطاب الأدبيّ أساسه نسج اللُّغة ونشاطها وتفاعلها، وتشكل اللغة الدعامة الرئيسة لبناء الرواية، فتعمل على تصوير شرائح اجتماعية متنوّعة تحظى بتفاوت نسبي لمستوى تفكير شخصيتها ونوعيّة سلوكهم الفردي.

فاللُّغة كما عبر عنها ابن جني هي "أصوات يعبر بها كل قوم عن أغراضهم"(15)، اللغة هي التفكير والتخيل والمرء لا يفكر خارج نطاق اللَّغة ، بل يفكر بها ومن خلالها وبواسطتها يصور كلّ ما يختلــج في خلده من أفكار وآراء، نرى أحداث الرواية هي ومضات من تاريخ تونس اختلط فيها خيال الروائي مع استحضار شخصيات عاشت في هذه الفترة، ولربما سلّط الروائي قلمه على ما يدور في واقعه وأدخله عالم روايته؛ لينقل إلى المتلقي أحداثه وآراءه حول ذلك الواقع، واستخدم في ذلك لغة تعمل على تحديد رؤيته وتوضح مدى قدرته على إيصال تلك الرؤية ومدى تفاعل القارئ معها، فهي تسعى لتوصيل المحتوى القيمي والوجداني للرواية بوصفها نظاماً توحّد بين عناصر المجتمع، وتحديد معالم الفعل البشري فيه بشكل منطقي عن طريق التعبير المناسب في التصوير والتعبير الفنيين يؤدّي إلى وصفها إبداع تجسد الفكر الإنساني لفترة من الفترات ، ويحيل اللغة من مجرد كونها نطقاً وظيفتها التبليغ المباشر لأبعاد واقع اجتماعي يستقي الروائي منه أحداثه وشخوصه إلى نظام وظيفته التبليغ غير المباشر(16).

فاللغة الروائيـــة " لا تحيا بصوت واحد، بل بالتعدد"(17)، لتجســـد لوحة لأبعاد الحياة بكل مظاهرها الفكرية والاجتماعية ، فقد تتناص اللغة الروائية مع كتابات أخرى متنوعة ، كما جاء في رواية (النار تخلف الرماد ، وعصفور في اليد أفضل من ألف على الشجرة، بعيد على العين بعيد على الخاطر) ، وتصبح اللغة كما يذهب باختيـن : "هي نسق من اللغات، فالرواية هي التنوع الاجتماعي للغات وأحياناً اللغات والأصوات الفردية تنوعاً أدبياً "(18) .

إنّ الروائي اعتمد لغة الوصف والحوار داخل النص بعيدة عن التصوير تقريباً، لذلك افتقد النص جمالية اللغة التي تجعل المتلقي يستمع ويستفيد في الوقت نفسه(19). ويسترسل الروائي أفكاره بلغة المنطق ويغض الطرف عن لغة المشاعر والانفعالات، لذلك افتقدت اللغة الحيوية التي تجسد عوامل ذات صلة بأعماق الشخصية وبأزماتها الداخلية وصراعاتها الخارجية.

استطاع الروائـــي أن يقدم لغة متنوعة عن طريق الاستفادة من إمكانات اللغة بين الفصيحة والعامية، فالرواية لم تخل من الألفاظ والتعابير العامية، فقد توسل الروائي ببعض المفردات العامية والمفردات الأجنبية، وعندها يلجأ الروائي إلى استخدام مثل هذه الألفاظ يضعها بين قوسين كما جاء في " عيب والله عيب أن يقع هذا في جنازة، يا ربيّ. متى يصبح هذا الخنزير بشراً..."(20). والروائي أنطق شخصياته ألفاظاً فصيحة إلا أن دلالاتها وتركيبها من حيث التقديم والتأخير وتقديمها أقرب إلى العامية "لا سبيل لترك الديك سارحاً بين الدجاج " فهو كلام فصيح من ناحية المفردات، عامي من حيث تركيب الجُمل ودلالات المفردات ، وكذلك استخدامه للحكمة المتداولة على ألسن العامة" لا حياة لمن تنادي...إياك أعني واسمعي يَا جارة **(21).**

أما الحوار، فإنّ كثيراً من الكُتّاب يلجأون إليها ـ أي العاميةـ؛ لتضفي عليه صدقاً وحيوية وواقعية، بل إن بعض الكُتّاب يؤثرون أن ينطقوا الشخصيات في موقف الحوار بلهجتهم الطبيعة الخاصة، إن ما تتميز به الرواية ما يجري على ألسنة الشخصيات على اختلاف طبقاتهم حوار أدبيّ بلغة عربيّة فصيحة سهلة سلسلة من ذلك الحوار الآتي:

" متى ستكّف عن وقاحتك وأنت تتحدث إلى سيّدك؟ ".

أجاب عبد الناصر منفعلاً

ليس لي سيّد ولستُ عبداً لأحد

يا حاج ، عليك أن تفخر بابنك"**(22)**.

كما اعتمد الروائي على كثرة الوصف لعناصر الصورة ، فهو يصور الحدث الواحد أو الموقف الواحد بكل جزيئاته مهما كانت دقيقة ومثاله : " حين تصلحون النوافذ المكسرة التي تدخل إلينا الرياح والأمطار...". استفاد الروائي من التناص، فوظفه توظيفاً فنياً يبدو من أبرز سمات الأسلوب لديه ، وكذلك الأمر في الحوار، وبقدر ما يكشف عن الثقافة العربيّة والعالمية الشعبية والأقوال التراثية الذائعة ، فإنه يوظفها لخدمة النص ، ويستعملها في مكانها فتصبر الجملة المقتبسة جزءاً أساسياً في نصها " المواضيع ملقاة في الطريق...حتى يبلغ سدرة المنتهى...اليوم خمر وغداً فلسفة...لا ظلم بعد اليوم"(23).

أفلح الروائي في اقتباسه النصوص التي تشير إلى ثقافات متنوعة ، وأجناس أدبيّة مختلفة مخزونة في ذاكرة الروائي، استدعاها السياقان الأدبيّ والشعوري واستطاع توظيفها بتحويلها إلى تداخل في نسيج النص.

كما استعان الروائي بالتناص الشعري ليؤكد القيم التّراثية والمثل التي ترقي بالحياة الإنسانية والاجتماعية، ليضفي على لغته الروائية مسحة شعورية، إذ يأتي بشعرأبو الطيب المتنبي: الخيلُ والليلُ والبيداء تعرفني **(24)**

وقول أبو صخر الهذلي: كأنه عصفور بلله القطر (25)

كذلك قول طرفة بن العبد : ستبدي لك الأيامُ ما كنت جاهلاً (26)

وبذلك تجد الروائي رسّــخ عبر التناص بأنواعه الشعري والموروث الثقافي أفكاره التي دعا إليها وجسدها عبر أحداث الرواية وشخصياتها، وأضف على لغته مسحة جمالية تنهض بها القيم الواقعية للبيئة التي كتبت في ظلها الرواية.

لا ننسى أن الروائي استعان بلغة الحكمة المتداولة على ألسنة العامة ، ليؤكد لوجهة الإيمانية التي يؤمن بها ويقنع المتلقي أنها الوجهة التي يؤمن بها الناس ويرددونها أيضاً، فيعزز بها النص ويضفي عليها مصداقية الواقع، فهي حكمة أنضجتها عقول العامة بعد أن عانت تجارب الحياة كما جاء : " لا تؤجل عمل اليوم إلى الغد." واستخدم الروائي مصطلحات غائبة هذه الأيام ، مثل: الإمبريالية، الرأسمالية، دكتاتور، البرجوازية.

إن لغة الرواية أقرب إلى السهولة ، لم يعمد الروائي ألفاظاً ثقيلة في فهمها ، بل هي لغة نشأت بشكل مقبول تعبر بصورة مباشرة عن الحدث غرضها التوصيل المباشر من أجل إحداث تأثير في العاطفة والموقف اللذين ينشأن من تتابع الأحداث.

ومن أجل إيضاح أبعاد لغة الرواية تتم المعالجة من خلال مطلبين: اللغة والوصف:

الوصف :" هو تقديم الأشياء والكائنات والمواقف أو الأحداث في وجودها المكاني عوضاً عن وجودها الزمني...ومن تزامنها وليس في تتابعها الزمني، الأمر الذي يميزه عن السرد والتعليق"(27). وقد حظى الوصف مكانة مرموقة في بناء الرواية ، خصوصاً وصف الشخصية، فقد تدخل الروائي في تكثيف الوصف والنعوت تجميلاً وتقبيحاً من خلال وصفه لأبطاله، ووصف ميزانهم الخارجية والنفسية وسلوكياتهم وكل أفعالهم وحركاتهم، مثل وصفه لزينة" وجه قمحيّ وضاح، شعر قصير سبط أملس بتسريحة مميزة لا هي متأنقة من أثر الحلاقات ولا هي مهملة تحلّ المناضلات لم تستعمل المساحيق إلاّ نادراً"(28). النص الروائي يتضمن الوصف والحوار داخل سياق اللغة من خلال الحكي الذي يتجلى في الخطاب الذي يحمل الأفعال والأحداث والشخوص وحديث الشخصيات، كما جاء في: " ليذهبوا إلى الجحيم، ليشربوا ماء البحر. يتعلّلون بالرقابة والرقيب أبو السعود، وهم لا يعرفون أن المنافذ كثيرة والشقوق في البناية واسعة"(29).

ب - الحـــــوار : " هو عرض درامي الطابع للتبادل الشفهي يتضمن شخصيتين أو أكثر، وفي الحوار تقدم أقوال الشخصيات بالطريقة التي يفترض نطقهم بها ويمكن أن

تكون هذه الأقوال مصحوبة بكلمات الراوي، كما يمكن أن ترد مباشـــرة دون أن تكون مصحوبة بهذه الكلمات"(30) ، كما جاء في الرواية تقول: " الرواية اليوم أمريكية بلا منازع الرواية الوحيدة التي تقول حقيقة الإنسان الحديث". ما لم يفهمه عبد الناصر هو كره سي عبد الحميد للشعر رغم معرفته الجيدة به ومتابعته له سأله عن ذلك مرة فأجابه..."(31). ويعتمد الروائي عادةً على دلالات اللغة من خلال سرد الشخصيات فمن خلال الحوار يمكننا تحديد العلاقة بين الشخوص وبين الأحداث التي يعيشونها ومدى قدرة الروائي على تيسير تلك الأحداث بصورة قريبة إلى الواقع الذي يصوره أو يتحدث عنه ، كما جاء في الرواية، قالت له لترفع من معنوياته: " ومن أين لي برجل حقيقي مثلك؟ أجابها ببرود هدوء محذراً: " يا حسرة عليك! أنت سيّد الرجال ولكنها لم تكن من كارك...(32) لم تكن مناسبة . والمكّون الحواري الروائي تزداد أهميته وخصوصيته على دوره الجوهري في إبداع الكلام الحقيقي الكاشف الذي يجمع من حوله عدة مستويات من الكلام يضفي على الرواية شكلاً من أشكال التعقيد ويجعل من جمالية الرواية شكلاً لا يكمن في اللغة نفسها، ولكن فيما وراء اللغة، فالتمييز بين نوعيات الحوار في الرواية وامتداداته المفتوحة القادر على التكيف في كلّ سياق جديد(33). يمتلك الروائي منظوراً واضحاً للواقع الذي يعيشه كان يعي تماماً المكونات السياسية والأيديولوجية الاجتماعية لواقعه ، ومن ثم فقد عمل على تدبيجه وإعادة تركيبه في روايته ، وهذا يشي بأن الروائي يتناغم مع واقعه المؤثر والمعقد ويتحرك وفق رؤية منسجمة تمنحه فرصة تفتيت هذا الواقع، وكشف خباياه داخل روايته، وجعل المتلقي في النهاية يميل إلى الأصوات والأفكار الإيجابية التي يروم الروائي إبلاغها عبر روايته. فتجربته غنية بما هو فنيّ سياسي وفكري ، استطاع استخراج ما في أعماق النفس الإنسانية بكل أصنافها التي خبرها جيداً ، علاوة على ذلك استطاع أن يرصد كل تيارات الصراع داخل المجتمع وتحويلها إلى أصوات لغوية تتدافع في نصوص الرواية.

الخلاصـــــــــــــة:

الروائي شـــاهد على عصره يرصد نبضات حياة مجتمعه ، فتصبح الرواية لديه تبحث عن المعنى والفضيلة في عالم تضطرب فيه القيم وتختل فيه موازين الحياة، وإن مسلكه في الرواية لا يهدف إلى خلق عالم تخيلي تتحقق فيه المتعة الجمالية فحسب، وإنما يهدف إلى بناء المستقبل على أنقاض الحاضر، الواقع المتحلل الذي فقد مصداقية استمراره في التاريخ والحضارة والشعور، وعلى الرغم من كون هذا العمل متأثراً إلى حدٍ ما بالفكر الغربي ومستمداً منه الكثير من أصوله ومناهجه الفنيّة ترك للمتلقي أن يختار ما يشاء، فالرواية تهدف إلى أن تعمق أحساس القارئ بالحياة السليمة وتوسع آفاق

تفكيره ووعيه وتزوده بمزيد من الخبرة والتجارب وتجعله يعيد النظر إلى الأشياء من زوايا جديدة، كما أضاف الروائي اللمسة الأدبيّة على الرواية أثارت العديد من الاستغراب في الأوساط الثقافية تحمل القارئ على العودة إلى التاريخ، وعلى تأويل المواقف، وعلى ربط الأحداث، وعلى التفكير والبحث.

الهوامـــش:

1- لعل من أبرز من نادى بذلك الدكتور جابر عصفور في كتابه : زمن الرواية، ينظر: مقدمة الكتاب، طبعة مكتبة الأسرة للأعمال الفكرية، الهيئة المصرية للكتاب، 1999م.
2- ينظر: العمل الأدبي من المعنى إلى الشكل مدخل معرفي إسلامي، عباس أمير، دار الفكر للطباعة والتوزيع والنشر، دمشق، الطبعة الأولى، 2003م، ص62.
3- مدارات نقدية في إشكالية النقد والحداثة والإبداع، فاضل تامر، دار الشؤون الثقافة العامة، بغداد، 1987م، ص346.
4- بنية الشكل الروائي، حسن بحراوي، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء، الطبعة الأولى، 1990م، ص20.
5- الرواية : ص5.
6- الرواية : ص6.
7- الرواية : ص5.
8- الرواية : ص8.
9- الرواية : ص9.
10- فرض بورقيبة على البربر في تلك العهد أن يسجلوا أسماء أبنائهم في البلديات بأسماء عربية، وظلت الأسماء البربرية حبيسة التداول في داخل البيوت فقط.
11- الرواية : ص73.
12- الرواية : ص287- 288.
13- ينظر: البناء الفني في روايات غساني، رسالة ماجستير، كلية الآداب، جامعة الكوفة، محمد حسن الجباري، 1998م، ص51.
14- ينظر: البنية القصصية ومدلولها الاجتماعي في حديث عيسي بن هشام، محمد رشيد ثابت، الدار العربية للكتاب، ليبيا، تونس، الطبعة الأولى، 1982م، ص38.
15- الخصائص، تحقيق: محمد على النجار، دار الهدى للطباعة والنشر، بيروت، الطبعة الثانية، الجزء الأول، ص33.
16- ينظر: نقد الرواية من وجهة نظر الدراسات اللغوية الحديثة، نبيلة إبراهيم ، مكتبة غريب، مصر، د.ط ، ص24.
17- الحداثة والرواية: تحديث عناصر البنية الروائية العربية" نماذج مختار"، فاطمة الزهراء زيرواي، أطروحة دكتوراه، كلية الآداب، جامعة عين شمس، 2005م، ص145.
18- الرواية: ص5 ، الصواب: النار تعقب الرماد، ص153- 254.
19- الحداثة والرواية، فاطمة الزهراء زيراوي، ص149.
20- ينظر: فن كتابة القصة، حسين القباني، دار الجيل، بيروت، الطبعة الثالثة، 1979م، ص88.
21- مجمع الأمثال: للميداني ، هذا البيت لسهل بن مالك الفزاري، الشطر الأول: أصبح يهوى حــرُة معطارة الجزء الأول: ص74.
22- الرواية : ص17.
23- الرواية : ص46.
24- ديوان المتنبي: عبدالرحمن البرقوقي، دار الكتاب العربي، بيروت، د.ط ، الجزء الثالث، ص85.

25- ديوان أبو صخر الهذلي، شرحه مهدي محمد ناصر الدين، منشورات دار الكتب العلمية، بيروت، الطبعة الثالثة، 2002م، ص21.
26- ديوان طرفة بن العبد، بشرح عبدالرحمن الطهطاوي، بيروت، الطبعة الثالثة، 2003م، ص38.
27- قاموس السرديات: جبرالدبيرنس، تحق: السيد إمام، ميرث للنشر والتوزيع والمعلومات، القاهرة، الطبعة الأولى، 2003م، ص43.
28- الرواية : ص63.
29- الرواية : ص170.
30- الرواية : ص155.
31- الشخصية وأثرها في البناء الفني لروايات نجيب محفوظ ، نصر محمد إبراهيم، شركة مكتبات عكاظ للنشر والتوزيع، د.ط ، ص258.
32- لغة عامية، بمعنى من ندك.
33- ينظر: الرواية آفقا للشكل والخطاب المتعددين، محمد برادة، مجلة فصول، المجلد (11)، العدد(4)، 1993م، ص22.